الحياة الأدبية في الحجاز

للأستاذ ابراهيم هاشم فلالى

من المؤلم ألا يجد القارئ الحجازى فى صحيفة « الرسالة » الغراء شيئاً عن أدب بلاده ، بينما هو يجد فى هذه المجلة الكريمة آداب الأمم العربية ممثلة فيها

فهل هذا القصور ناشىء عن الرسالة ؟ أو هو ناشىء عن الأدباء الحجازيين الذين لا يتقدمون بإنتاجهم الأدبى إليها ؟ إنك تجد من الأدباء الحجازيين من يقول لك إن الرسالة ضنت بنشر ما قدمناه لها ، وقد يقول الرسالة إنها لا تضن بنشر كل ما يصل إليها من أى قطر إذا رأته صالحاً للنشر . والذى أراه أن الرسالة أصبحت لها من المكانة فى قلوب أبناء البلاد العربية ما تغبط عليه ، لأنها ما زالت تخدم فكرة العروبة ولغة العروبة ، حتى ظن أبناء العروبة فى شتى بلادهم أنها رسالتهم ، فهى قمينة بأن يكتب لها الكاتبون وهم قمينون بأن تنشر لهم كل ما يكتبون ، فكثرت لديها المواد ، حتى أصبحت صفحاتها لا تسع كل ما يطلب منها نشره ، وعلى الأخص بعد أن استحكمت أزمة الورق وتضاءل حجمها حتى أصبحت فى الحجم الذى هى فيه الآن ، ولم يبق لرئيسها إلا أن يتخير من المواد المتجمعة لديه ما هو أخلق بالنشر من غيره . وله الحق فى أن يختار ما يشاء ويهمل ما يشاء ، وقد تضطره ظروف العمل إلى ذلك ، فيرى الذين لم يقدر لإنتاجهم النشر أن لا باعث لهم على الكتابة للرسالة ما دام نصيبهم الإهمال — كما يخيل إليهم — وغالبية الأدباء ، كما بلوتهم ، لهم مزاج لا يقوى على الاحتمال ، ويتأثرون لأوهى الأسباب .

فى الحجاز حركة أدبية طيبة ، وقد كانت هذه الحركة تتمثل فى جريدتى أم القرى وصوت الحجاز بمكة المكرمة ، وفى جريدة المدينة ومجلة المنهل فى المدينة المنورة . وانتشر الروح الأدبى بين الناس ، فبرز بيننا أدباء جديرون بالإعجاب والتقدير ، ووجدت هذه الحركة عطفاً وتشجيعاً من حكومتنا السنية ، فخلقت كثيراً من الأدباء والشعراء فى دواوينها . وكان ولا يزال نائب جلالة الملك المعظم صاحب السمو الملكى الأمير فيصل يرعى الأدباء ويعطف عليهم ويأخذ بأيديهم ، فانتعشت الحركة الأدبية ، وافتتح لها سعادة الشيخ محمد سرور الصبان مدير المالية العام وكبير الأدباء قاعة فى إدارة الإسعاف للمحاضرات الأدبية ليجد فيها كل أديب جواً صالحاً للانتاج الأدبى القيم ، ثم أسس شركة للطبع والنشر لتقوم بنشر مؤلفات الأدباء على نفقتها ، وزود مقر الشركة بمكتبة قيمة ليسهل على الأدباء والمؤلفين مراجعة ما هم فى حاجة إلى مراجعته من الكتب وقتما يشاؤون

وحيال كل هذه المغريات نشطت عزائم الأدباء ، فألقوا المحاضرات ، وكتبوا المقالات ، وألفوا الكتب ، وشغف الناس بالقراءة ، ولفتهم البحوث الأدبية مما دعا إلى مضاعفة الإنتاج الأدبى وإتقانه ومن ثم ألفت كتب جمة فاز بعضها بالنشر مثل كتاب « وحى الصحراء » لمؤلفيه الأستاذ المرحوم عبد القصود والأستاذ عبد الله بلخير ، وكتاب « محاضرات الإسعاف » ، وكتاب « المعرض » للأستاذ الكبير الشيخ محمد سرور الصبان ، وكتاب « أدب الحجاز » له أيضاً ، وكتاب « خواطر مصرحة » للأستاذ محمد حسن عواد ، و « كتابى » للأستاذ أحمد عطار ، وكتاب « محمد بن عبد الوهاب » للعطار أيضاً ، وكتاب « الأدب الفنى » للأستاذ حسن كتبى ، وكتب الأستاذ عبد القدوس الأنصارى وهى : التوأمان ، إصلاحات فى اللغة ، آثار المدينة المنورة ؛ وكتب أخرى لم تحضرنى أسماؤها الآن ، كما طبع بجانب هذه الكتب الأدبية كتب أخرى مدرسية وأخذت حركة الإنتاج الأدبى تنمو وتزدهر . وتبعاً لدينا كتاب وأدباء وشعراء سنأتى على نماذج من إنتاجهم ليتبين لقراء الرسالة الكرام إلى أى حد من النضج بلغ الشعر والنثر عندنا

أما المؤلفات الأخرى والتى تكاد تكون قيمتها الأدبية أكبر من قيمة المؤلفات التى طبعت ، فإنها بقيت محفوظة فى مكاتب مؤلفيها ، لأن الحرب — حربها الله — قامت فى هذه الأثناء وحلت ببلادنا أزمة الورق كما حلت فى البلاد الأخرى ، فتوقفت حيال ذلك الحركة الأدبية عن السير فى طريق الذيوع

والانتشار ، ولكن الأدباء لم يقفوا عن الإنتاج ، لأن الفورة الأدبية جياشة فى صدورهم بقوة ، فهم ما زالوا ينظمون وينثرون ويؤلفون ، وهم محتفظون بذلك كله إلى أن يأتى يوم السلم المنظور وتنحل أزمة الورق ، فإذا جاء ذلك اليوم وقد جاء ، فسوف يرى الناس أدباً حجازياً له سمته وله خصائصه ، وسيكون لبلادنا ذات التاريخ المجيد مشاركة أدبية فعالة فى بناء صرح الحضارة الإنسانية ، وستقوم بواجبها وتؤدى رسالتها بما يتناسب ومكانتها الدينية والأدبية فى تاريخها الماضى المجيد

والآن ، سأذكر النماذج الأدبية التى تكلمت عنها آنفاً ، وسأبدأ بنماذج شعرية ليرى القارئ العربى الكريم الشعر الحجازى فى ثوبه الجديد ، وللقارئ أن يحكم له أو عليه بما يستحقه . على ألا يغرب عن باله أننى لم أتخير فى سرد هذه النماذج الشعرية أحسن ما قيل ولا أروع ما نظم ، بل ذكرت ما شاع على الألسن دون أن أتكلف عناء البحث والاختيار

قلت فى معرض كلامى إنه نبغ عندنا شعراء وأدباء جديرون بالإعجاب والتقدير ، وفى مقدمة هؤلاء كبير الأدباء وحامل لوائهم الأستاذ محمد سرور الصبان ، فمن شعره قوله يناجى الليل :

يا ليل صمتك راحة للموجعين أسى وكربا
خففت من آلامهم ووسعتهم رفقاً وحبا
أو ما ترى حدث الزما نأمضهم عسفاً وغلبا؟

يا ليل إن بسم الخلى وسادر لهواً ولعبا
فبجنبه يبكى الشجى وربما لم يأت ذنبا
هذا ينعم باله وأخوه يصلى النار غصبا

يا ليل فارق محدثاً أخبارنا غبا فغبا
خلنا بذلك حاجة إن تقضها فرجت كربا
وابدأ حديثك بالألى عانوا من الآلام وصبا
فعسى بهم تأسو وعل لنا بذلك منه طبا
يا ليل ما للبدر يـ رح فى السما شرقاً وغربا
يبدو فيضحك ساخراً منا وطوراً قد تحبا ...
يعلو على متن السحا ب يسوقها سرباً فسربا
أتراه يعبث كالولي دقلبس يخشى بعد عتبا

يا ليل ما شأن الثرا ة سيرها تيهاً وعجبا
سكرى ترنح عطفها دلا فلا يستطيع خبا
تخذت لها مهد السما ء كرقص فتدب دبا
طرقت إليك بناتها فضممتهن إليك ربا
تلك النجوم المشرقا ت وجوهها بشراً وحبا

وهكذا يمضى — حفظه الله — فى القصيدة على هذا النمط المستعذب حتى يتمها .

ومن الشعراء الذين نفتخر بهم ذلك الشاعر المتصوف الأستاذ حسين سرحان ومن شعره قوله :

أنت والإثم من طباعى وأنت من طينك الكريم
هبطت فى من ذرى ارتقائى يا موجد الروح من عدم

أوقفتنى عند حد نفسى وقد تجاوزت حدها ...
والنفس مرهونة برمسى إذا اقتنى الجزر مدها ...
فكان ما شئت من صراع وزاد ما ذقت من ألم ...
فحية أنت : لا تراعى يا نفسى : فاستقرى الندم

الطين ما زال يحتوينى يرد وثبى إلى الثرى
فشاهت الأرض من قرين وساءت الأرض عنصرا

ردت سموى إلى اتضاع وإنب تعلقت بالقمم
ظلت على أمرها المطاع ومانى الخصم والحكم

وشهوة سمها زعاف تشب فى الروح والبدن
مكشوفة ما لها غلاف وإن يكن ما لها ثمن ...

قد استجابت لكل داع وأورت الجسم بالضرم
كأنها فى القطيع راع فإن أبى أمرها انحطم

فى اللحم والعظم والحنايا وفى عروق وفى عصب
تشف عن أخبث الدنايا فإن تعجبت لا عجب

فإنها غاية المساعى ومصدر الكون والأمم
لولاك يا رخوة القناع ما جالت الروح فى نسم

إذا تخيلتنى عظيماً أرينى أننى سقط
سبحان من ينضر الهشيما ويخرج الحق من غلط

يا خالط الوحل بالشعاع وثافث السم فى اللسم

أقسمت فى العالم الشاع ... بين الورى أصدق القسم
بأننا سذج حيارى ... وسعينا ذاهب هدر
نريد أن نكشف الستارا ... كلا : فلن يبلغ الوطر
فإن تعاقب فباقتناع ... وإن تجاوزت لا جرم
ما أجدر الكون بالضياع ... لولا الذى يبعث الرمم

ومن شعرائنا المتفوقين الأستاذ الكبير محمد حسن عواد وإلى القارئ أقدم نموذجاً من شعره . قال من قصيدة يصف فيها جندى الديموقراطية فى ساحات القتال :

من بليغ العقل ملهمه ... عزمه المنطيق لافه
كاسب الإعجاب مغتصبا ... قلبه الماضى ومخدمه
يكتب التاريخ من دمه ... أسطراً والمجد معجمه
يخدم الأوطان ينقذها ... من أذاها وهى تخدمه
لكأن الدين دافعه ... نحو قربان يقدمه
دعوة القرآن تحفزه ... أو هدى الإنجيل يلهمه
فهو فى اللقيا محمده ... وهو عيساه ومريمه
أعجبى ياحرب من مرح ... لاعب لولا تحهمه

ومنها :

يشتهى المجد فى عمل ... هائل المغزى يعظمه
حيث موسيقى الخلود إذا ... طوحت بالجبن تحطمه
والصدى كالصوت صاعقة ... والصفوف السود ترجمه
يسأل الأقدار هل يجد ... تنسل المدوان أودمه
فإذا بالكون ليل أسى ... تتهاوى فيه أنجمه
وإذا الأصداء قائلة ... قول صدق لا تجمجمه
أيها التاريخ ذا بطل ... فعله للخلد مسلمه
هكذا فى الحياة على ... مسرح الأيام تحكمه
عالم يبدو فيصرعه ... عالم بانيه يهدمه

وهذا الشاعر المجلى الأستاذ حمزة شحاتة صنو العواد ومزاحمه على المورد الذى يستقى منه يقول من قصيدة غزلية :

بعد صفو الهوى وطيب الوفاق ... عز حتى السلام عند التلاقى
يا معانى من داء قلبى وحزنى ... وسليا من حرقتى واشتياقى
هل تمثلت ثورة اليأس فى وجـ ... ـهى وهول الشقاء فى إطراقى
أى سهم به اخترقت فؤادى ... حين سددتها إلى أعماقى ؟؟
إذ تهاديت مبدلا نظرة العطـ ... ـف بأخرى قليلة الإشراق
مسرعاً فى المسير تنتهب الخطـ ... ـو فهل كنت مشفقاً من لحاقى ؟
وتهيأت للسلام ولم تفعل ... فأغريت بى فضول الرفاق
هبك أهملت واجبى صلفا منـ ... ـك فما ذنب واجب الأخلاق ؟
كنت بالأمس مسعدى فتغير ... ت كثيراً فهل سئمت التلاقى
واعترى قلبك الملال فأعرضـ ... ـت فهلا انتظرت يوم الفراق
لا أداجيك للكرامة معنى ... تتجلى فى صحة الميثاق
سطوة الحسن حللت لك ما كان ... ن حراماً فافتنّ فى إرهاقى
أنت حر والحسن لا يعرف الـ ... ـقيد فصادر حريتى وانطلاقى
لم يكن باليسير صبرى على عـ ... ـفك لو أننى طليق الوثاق

ومن شعرائنا المجيدين الأستاذ أحمد عطار، فمن قوله هذه القصيدة :

يا شقوة ما تكاد تطلقنى ... من نيرها أو يخف محملها
ثقيلة ما أطيق وطأتها ... مجنونة باليدين معولها
تعبث فى مهجتى عواصفها ... ترجمها رجة فتذهلها
وينتهى للجنون محتدها ... وفى مراعى السطا تنقلها
وفى فؤادى تشب معركة ... ما تنطفى والزمان يشعلها
الحس صال وفى النهى فكر ... رعن يذيق المنون أسهلها
لا الليل ليل وأنت نائية ... ولا الدرارى يروق أجلها
ولا الأزاهير وهى باسمة ... تسبى وعين الجبيب تغفلها
أين الليالى التى نعمت بها ؟ ... وأنت عند الصباح بلبلها
أستلهم الوحى منك يا أملى ... شعراً وآيات أرتلها
وكفك البضة التى ذخرت ... بأنعم لا أنى أقبلها
وألثم الخد منك مشرقة ... أزهاره والفنون يشملها
أين سويعاتك التى غبرت ؟ ... ففى فؤادى الرحيب معقلها
أين الورود التى عبثت بها ؟ ... وكنت بعد القطاف أكفلها
وأين دار الهوى تظللنا ؟ ... وأين أفراحها تجللها
أين الأمانى ؟ وأين بارقها ؟ ... وأين أضواؤها ؟ ومنهلها ؟
ليت الذى قد يروح يرجعه ... أمثل أيامنا ومقبلها
وليت تفنى وذكرها حرق ... لماً لهذى التى تخيلها
أين وما أين لى بنافعة ... إن يتأ عن مهجتى مؤملها

إبراهيم هاشم فلالى